عنوان المحاضرة

عصر التدوين

عصر التدوين

تبدأ هذه المرحلة من مبدأ ظهور التدوين، وذلك فى أواخر القرن الهجري الاول وبداية الثاني، ولم يظهر تدوين التفسير هكذا فجأة الى الساحة العلمية بل انه قد مر بعدد من الخطوات وهي كالاتي:

الخطوة الأولى :

وكان التفسير قبل ذلك يُتناقل بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ، كما يروى بعضهم عن بعض. والتابعون يروون عن الصحابة. كما يروى بعضهم عن بعض، وهذه هى الخطوة الأولى للتفسير.

الخطوة الثانية:

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث، فلم يُفرد له تأليف خاص يُفسِّر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وُجد من العلماء مَن طوَّف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجوار ذلك ما رُوِى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى ﷺ، أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء:

١-يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ، ٢-وشعبه بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ، ٣-ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ ٤- وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ،

٥- وروح عن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥هـ، ٦-وعبد الرزاق بن همام ات ٢١١هـ،

٧-وآدم بن أبى إياس والمتوفى سنة ٢٢٠هـ، وعبد حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ وغيرهم،

وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسنداً إليهم، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شئ منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها.

تتميز هذه الخطوة بما ياتي:

-كان لهم عناية خاصة بالاسناد.

-لم يكن جمعهم للتفسير مستقلا بل على انه باب من ابواب الحديث.

-اشتمال التفسير على ماجاء عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

الخطوة الثالثة:

ثم بعد هذه الخطوة الثانية، خطا التفسير ثالثة، انفصل بها عن الحديث، فأصبح علماً قائماً بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورُتِّب ذلك على حسب ترتب المصحف. وتم ذلك على أيدى طائفة من العلماء منهم

١-ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ، ٢- وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ،

٣-وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨هـ،

٤-وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧هـ، ٥-وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩هـ،

٦-والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠هـ،

وغيرهم من أئمة هذا الشأن.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شئ من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللَّهم إلا ابن جرير الطبرى فإنه ذكر الأقوال ثم وجهَّها، ورجَّح بعضها على بعض، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة، واستبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية....

<u>مميزات هذه الخطوة:</u>

-ما دون فيها كان بالتفسير بالمأثور عن النبي ﷺ وعن اصحابه وعن التابعين.

- كان التفسير فيها بالاسناد المتصل الى صاحب التفسير المروي عنه.

-لم تكن لهم عناية بالنقد وتحري الصحة في رواية الحديث .

- اتساع رواية الاسرائيليات.

وإذا كان التفسير قد خطا هذه الخطوة الثالثة التى انفصل بها عن الحديث، فليس معنى أن هذه الخطوة محت ما قبلها وألغت العمل به، بل معناه أن التفسير تدرج فى خطواته، فبعد أن كانت الخطوة الأولى للتفسير هي النقل عن طريق التلقى والرواية، كانت الخطوة الثانية له، وهى تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة، وهى تدوينه على استقلال وانفراد، فكل هذه الخطوات، تم إسلام بعضها إلى بعض، بل وظل المحدِّثون بعد هذه الخطوة الثالثة، يسيرون على نمط الخطوة الثانية، من رواية المنقول من التفسير فى باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين فى ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة أو عن التابعين.

<u>الخطوة الرابعة:</u>

ثم إن التفسير لم يقف عند هذه الخطوة الثالثة بل خطا بعدها خطوة رابعة، لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد، فصنَّف فى التفسير خلق كثير، اختصروا

الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسِّرين من أسلافهم دون أن ينسبوها لقائليها، فدخل الوضع فى التفسير والتبس الصحيح بالعليل، وأصبح الناظر فى هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح، فنقله كثير من المتأخرين فى تفاسيرهم، ونقلوا ما جاء فى هذه الكتب من الإسرائيليات على أنها حقائق ثابتة، وكان ذلك هو مبدأ ظهور خطر الوضع والإسرئليات فى التفسير .

ولقد وُجِد من بين هؤلاء المفسِّرين مَن عَنِى بجمع شتات الأقوال، فصار كلما سنح لَه قول أورده، وكلما خطر بباله شئ اعتمده، فيأتى مَن بعده وينقل ذلك عنه بدون أن يتحرى الصواب فيما ينقل، وبدون التفات منه إلى تحرير ما ورد عن السلَف الصالح ومَن يرجع إليهم فى التفسير، ظناً منه أن كل ما ذكر له أصل ثابت!! وليس أدل على نهم هؤلاء القوم بكثرة النقل من أن بعضهم ذكر فى تفسير قوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّآلِّينَ} عشرة أقوال مع أن تفسيرها باليهود والنصارى، هو الوارد عن رسول الله ﷺ وعن جميع الصحابة والتابعين، حتى قال ابن أبى حاتم: "لا أعلم فى ذلك اختلافاً بين المفسِّرين".

كانت هذه الخطوة منعطفاً في تاريخ التفسير. حين اتجه بعض المفسرين الى اختصار الأسانيد ونقلوا الآثار المروية عن السلف دون ان ينسبوها إلى قائليها فاختلط الصحيح بالضعيف.

وكانت تلك الهفوة من أخطر الهفوات لنفوذ الأعداء الى الدين ليضعوا في مالا يرضيه ، ولولا أن الله هيئ لهذه الأمة من علماء الإسلام من كشف الزيف وميز بين الصحيح والضعيف وحفظ لهذه الأمة هذا الدين لكان الأمر عظيما.

كما زاد في هذه المرحلة القول في التفسير بالرأي المحمود منه والمذموم ، وتجرأوا على القول في القرآن بغير علم ... وحرص بعضهم على الإكثار من رواية الأقوال في تفسير الآية الواحدة . فصار كل من يعجبه قول يورده من غير ان يخطر في باله شيء يعتمد عليه ، فياتي من بعده فيظن أن ماورد له اصل ، غير ملتفت بصحة ولا باحث عن سند.

وتطورت كثيراً رواية الإسرائيليات وتوسعت في استقصاء الأخبار الاسرائيلية والخوض بما لا فائدة فيه.

مميزات الخطوة:

١-- اختصار السند

٢- نقل الاثار دون تسميتها الى قائليها- نقطة ضعف دخل فيها الاعداء للدس في الاسلام

٣- اعتماد العقل في التفسير ادى الى ظهور التفسير بالرأي المحمود ثم المذموم والجرأة على القول في القران بغير علم.

٤- الاكثار من الرواية في تفسير الاية الواحدة

٥- كثرة الاسرائيليات خصوصا في مالا فائدة منه

الخطوة الخامسة:

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة خامسة، هى أوسع الخطا وأفسحها، امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصوراً على رواية ما نُقِل عن سَلَف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك .

* تدرج التفسير بالراي(العقلي) في هذه الخطوة :

بدأ ذلك أولاً على هيئة محاولات فهم شخصي، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمراً مقبولاً ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية. ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم، متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، حتى وُجِد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بُعْدٍ عظيم.

دُوِّنت علوم اللغة، ودُوِّن النحو الصرف، وتشعبَّت مذاهب الخلاف الفقهى، وأثيرت مسائل الكلام، وظهر التعصب المذهبى قائماً على قدمه وساقه فى العصر العباسى، وقامت الفِرَق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها، وتُرجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فامتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير حتى طغت عليه، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى، وصار أظهر شئ فى هذه الكتب، هو الناحية العقلية، وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول، أو بغير ذلك على المأثور.

وهكذا تدرج التفسير، واتجهت الكتب المؤلَّفة فيه اتجاهات متنوعة، وتحكَّمت الاصطلاحات العلمية، والعقائد المذهبية فى عبارات القرآن الكريم، فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن، كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه، وكما ظهرت آثار النِحَل والأهواء فيه ظهوراً جلياً.

وإنَّا لنلحظ فى وضوح وجلاء: أن كل مَن برع فى فن من فنون العلم، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه، فالنحوى تراه لا هَمَّ له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته، وذلك كالزَجَّاج، والواحدى فى "البسيط"، وأبى حيان فى "البحر المحيط".

وصاحب العلوم العقلية، تراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما تراه يعنى بذكر شبُههم والرد عليهم، وذلك كالفخر الرازى فى كتابه "مفاتيح الغيب".

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهية، والرد على مَن يخالف مذهبه، وذلك كالجصَّاص، والقرطبى..

وصاحب التاريخ، ليس له شغل إلا القصص، وذكر أخبار مَن سَلَف، ما صح منها وما لا يصح، وذلك كالثعلبى والخازن..

وصاحب البدع، ليس له قصد إلأا أن يُؤوّل كلام الله ويُنزله على مذهبه الفاسد، وذلك كالرمانى، والجبائى، والقاضى عبد الجبار، والزمخشرى من المعتزلة، وغيرهم من الفرق الاخرى.

وأصحاب التصوف قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب. واستخراج المعانى الإشارية من الآيات القرآنية بما يتفق مع مشاربهم، ويتناسب مع رياضاتهم ومواجيدهم، ومن هؤلاء ابن عربى،

وهكذا فسَّر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه، وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت فى بعض العصور رواجاً عظيماً، كما راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يُحَمّلوا آيات القرآن كل العلوم، ما ظهر منها وما لم يظهر، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن. وفى الحق أن هذا غلو منهم، وإسراف يُخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه.

ثم إن هذا الطغيان العقلى العلمى، لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذى يجعله فى عداد ما درس وذهب، بل وُجِد من العلماء فى عصور مختلفة، مَن استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان، ففسَّر القرآن تفسيراً نقلياً بحتاً، على توسع منهم فى النقل، وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطى فى كتابه "(الدر المنثور".)

<u>مميزات الخطوة:</u>

- كتب في التفسير الكثير بعد ان فتح الباب على مصراعيه مع كثرة العلوم فدخل فيه الغث و السمين و الصحيح و العليل

- الاعتماد في التفسير على الرأي دون الاثر

- ظهور الفرق و الملل و المذاهب

- اصبحت التفاسير تحمل صفة من صفات المفسر ومذاهبه و مشاربه ، مثلا الفلسفة يمثلها تفسير الرازي واللغة تفسير ابوحيان، والفقه مثل القرطبي، والتصوف يمثله ابن عربي وهكذا

- ظهور التفاسير الفقهية توافقا مع مذهب المفسر (الحنفي – المالكي- وغيرهم)

هذه هي الخطوات التي مر بها تدوين التفسير .ويجب ان ندرك ان تتابع هذه الخطوات لايعني ان كل خطوة منفصلة انفصالا تاما عن السابقة او اللاحقة بل كانت كل خطوة فيها نواة للخطوة الاخرى .